أحاديث إصلاح القلوب

(٣٣)

استقامة القلب

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فروى الإمام أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»(١).

في هذا الحديث أنَّ صلاح القلب بالإيمان مستلزم لصلاح الجسد؛ فأساس الاستقامة ومدارها على القلب، والقلب هو أساس الصَّلاح ومعدنه ومنبعه.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمراد باستقامة إيمانه: استقامةُ أعمال جوارحه، فإنَّ أعمالَ الجوارحِ لا تستقيمُ إلَّا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب: أنْ يكونَ ممتلئًا مِنْ محبَّةِ الله، ومحبَّة طاعته، وكراهة

---

(١) رواه أحمد (١٣٠٤٨)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (٢٥٥٤).

معصيته»[(١)].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فُصِّلت:٣٠-٣٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف:١٣-١٤]. في هذا عظم شأن الاستقامة وعظم ثوابها، لكنَّ ذلك لا يكون ولا يتحقَّق إلَّا إذا استقام القلب على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فإنَّه لا يستقيم إيمان عبدٍ إلَّا إذا استقام قلبه، فالقلب أساس الاستقامة والصَّلاح، ولهذا فإنَّ أمر استقامة القلب أمرٌ عظيم، وكثير من النَّاس رُبَّما يعنى باستقامة الظَّاهر ويغفل عن إقامة باطنه على الطَّاعة وحُسن الإقبال على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والبعد بالقلب عن أدواء القلوب وأمراضها الَّتِي تبعدُ عن الاستقامة.

والقلوب تتسلَّل إليها أدواء وأسقام وأمراض تُضعف ما فيها من إيمان وتُنقص ما فيها من دين وطاعة لله سبحانه؛ ولهذا فإنَّ من الاستقامة على طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يحرص المرء على مداواة قلبه والبعد به عن الأدواء

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٢١١).

الَّتِي تصيب القلوب فتُسقِمها وتمرضها، وكما أنَّ الأبدان تمرض فإنَّ القلوب تمرض مرضًا أشدَّ من مرض البدن، وقد أخبر نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن أمراض عديدة تصيب القلوب وتتسلَّل إليها، وأخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّها أصابت كذلك الأمم السَّابقة قبلنا.

وقد جمع ﷺ في حديث واحد جملة من الأمراض والأدواء الَّتِي تصيب القلوب محذِّرًا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه منها، روى الحاكم في المستدرك بإسنادٍ ثابت من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال «**سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الْأُمَمِ**» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا دَاءُ الْأُمَمِ؟ قَالَ: «**الْأَشَرُ، وَالْبَطَرُ، وَالتَّكَاثُرُ، وَالتَّنَاجُشُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّبَاغُضُ، وَالتَّحَاسُدُ؛ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ**»[(١)]. فعدَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ستَّة أمراض وأدواء تصيب النَّاس ثمَّ إذا اشتدَّت بهم هذه الأمراض والأسقام وقع البغي وهو الغلوُّ وتجاوز الحدود والانتهاك للأنفس والأعراض والأموال دون مبالاتِ من يفعل ذلك بعقاب ولا حساب ولا وقوف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا الحديث يعدُّ علَمًا من أعلام النُّبوَّة؛ لأنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أخبر عن أمورٍ أصابت الأمم قبل أُمَّة محمَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأخبر أنَّها ستصيب الأُمَّة، فوقع الأمر طبقًا لما أخبر ووفقًا لما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٧٣١١)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٣٦٥٨).

ثمَّ إنَّ هذا الخبر خرج مخرج التَّحذير والإنذار، فلم يقل ذلك عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لمجرَّد العلم به، بل قال ذلك مُحَذِّرًا ومنذرًا قال: «**سَيُصِيبُ أُمَّتِي**»، وإذا كانت هذه الأدواء ستصيب الأُمَّة فالواجب على كلِّ فرد من أفراد الأُمَّة أن يحتاط لنفسه من أن تصيبه؛ فإنَّه من المُتَقَرِّر في واقع النَّاس عندما يُتحدَّث عن انتشار بعض الأمراض الخطيرة أنَّهم يحتاطون للسَّلامة منها اهتمامًا وسؤالًا عن العلاج وطرق الوقاية واتِّخاذ الأسباب المُحَقِّقة للسَّلامة!! وهكذا في مثل هذا المقام، بل ينبغي أن يكون الاهتمامُ أشدَّ، فإذا كانت هذه الأمراض ستصيب الأُمَّة ولا بُدَّ فينبغي على العبد أن يحترَّز وأن يحتاط لنفسه وأن يأخذ بأسباب الوقاية حتَّى لا يهلك بهذه الأمراض والأسقام العظيمة.

وإذا تأمَّل المتأمِّل في هذه الأمراض المذكورة في هذا الحديث يجد أن من ورائها إكبابًا على الدُّنيا وافتتانًا بها، فتصبح في نفوس النَّاس هي الشُّغل الشَّاغل، حتَّى إنَّ بعض النَّاس لتصبح حاله في هذا المقام لا همَّ له إلَّا الدُّنيا، وتكون هي مبلغَ علمه وغايةَ مراده، وفي الدُّعاء المأثور: «**اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا**»[(١)]، والدُّنيا متاعٌ زائل؛ يغُرُّ أهله ويُفتنون بها وهم عنها زائلون، لا تبقى لهم ولا يبقون لها، وكم أهلكت من أقوامٍ

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٠٢)، وحسَّنه الألبانِيُّ.

بتكالبهم عليها وافتتانهم بها وجعْلها أكبر همهم ومبلغ علمهم، وقد تولَّد في النَّاس من قديم الزَّمان أمراضٌ خطيرة وأدواء فتَّاكة ولا تزال باقيةً في النَّاس بسبب هذه الدُّنيا والتَّكالب عليها، سمَّاها النَّبِيُّ ﷺ: «**دَاءَ الْأُمَمِ**» وهي: «**الْأَشَرُ، وَالْبَطَرُ، وَالتَّكَاثُرُ، وَالتَّنَاجُشُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ؛ حَتَّى يَكُونَ الْبَغْيُ**».

فتأمَّل في هذه الأدواء الخطيرة والأمراض الفتَّاكة فكم فتكت بأمم قبل أُمَّة محمَّد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وكم أوردتهم من موارد ومهالك، وكم أوصلتهم إلى معاطب، ويخبر نبيُّنا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن تلك الأدواء الَّتِي أصابت مَن قبلنا ستصيب هذه الأمة.

وكلُّ عبدٍ ناصح لنفسه إذا سمع هذا الحديث وقف موقف الحذِر من أن يصاب بهذه الأدواء المعطِبة والأمراض المهلِكة الَّتِي أخبر الصَّادق المصدوق عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّها ستصيب هذه الأُمَّة محذِّرا ومنذرًا صلوات الله وسلامه وبركاته عليه، وجميع هذه الأدواء تتولَّد من التَّكالب على الدُّنيا والافتتان بها وزخرفها والانكباب عليها طمعًا في جمعها وتحصيلها مع غفلةٍ عمَّا خُلق العبد لأجله وأوجد لتحقيقه.

و«**الأشر**»: كفران النِّعم، و«البطر»: الطُّغيان عند وجودها، و«**التَّكاثر**»: التَّفاخر بكثرة الأموال والأولاد، و«**التَّناجش في الدُّنيا**»: بسبب التَّكالب

عليها والطَّمع فيها، و«**التَّباغض**»: التَّعادي والتَّدابر والتَّقاطع، و«**التَّحاسد**»: تمنِّي زوال النِّعم عن الآخرين، والحاسد عدوُّ نعمة الله. ثمَّ يتولَّد من مجموع هذه الأدواء وقوع البغي بتجاوز الحدِّ، حتَّى إنَّ الإنسان إذا استشرى فيه البغيُّ لا يبالي فرُبَّما أراق دماءً معصومة وهتك أمورًا مُحَرَّمة وتعدَّى على أموالٍ محترمة دون مبالاةٍ ولا خوف من عقاب.

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم أن يحرص على السَّلامة من هذه الأدواء حرصًا أشدَّ من حرصه على السَّلامة من أدواء البدن وأمراضه؛ فإنَّ أدواء القلوب أخطر ومغبتها وسوء عاقبتها أعظم، وليجاهد المرء نفسه على سلامة قلبه من هذه الأدواء المعطبة، وليسأل ربَّه ومولاه أن يُزَكِّي قلبه وأن يصلح نفسه وأن يؤتي نفسه تقواها، فإنَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلِيُّها ومولاها، ولا عاصم ولا مسلِّم من هذه الأهواء إلَّا ربُّ العالمين جلَّ في علاه.

وقد أخبر النَّبِيُّ ﷺ في حديث آخر ويُعَدُّ آية أخرى من آيات النُّبُوَّة عن الوقت الَّذِي تنتهي فيه تلك الأمراض، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**وَاللهِ لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ**

أَحَدٌ»[١]؛ المال يصبح مُتَوَفِّرًا لدى الجميع، فالتَّباغض الَّذِي كان من أجل هذا المال والتَّحاسد والتَّناجش ونحو هذه الأسقام الَّتِي كانت لأجل المال تنتهي؛ لأنَّ المال أصبح مُتَوَفِّرًا وزائدًا حتَّى إنَّ من عنده مال يريد أن يقدِّم صدقة أو زكاة فلا يجد أحدًا يقبل منه.

وهذا يُوَضِّح أنَّ الأموال فتنة؛ فتنة لمَن آتاه الله المال، وفتنة لمَن لم يؤته الله المال، وكم من إنسان لم يُوَفَّق في هذا الامتحان سواءً مَن آتاه الله المال أو مَن لم يؤته؛ لأنَّ هذا ممتحن بماله وهذا ممتحن بعدم وجود المال، والدُّنيا دار ابتلاء وامتحان، والمُوَفَّق من عباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَن يمضي في دنياه على الاستقامة على طاعة الله.

وقد قال ﷺ: «**إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فاتَّقُوا الدُّنْيَا واتَّقُوا النِّسَاءَ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ**»[٢]. رواه مسلم.

قال الإمامُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تتمُّ الرَّغبةُ بالآخرةِ إلَّا بالزُّهدِ في الدُّنيا، **ولا يستقيمُ الزُّهدُ في الدُّنيا إلَّا بعد نَظَرَيْن صحيحَيْن:**

* **نظر في الدُّنيا**، وسرعةِ زوالِهَا وفنائِها واضمحلالِها ونَقصِها وخِسَّتِها،

---

(١) رواه مسلم (١٥٥).

(٢) رواه مسلم (٢٧٤٢).

وأَلمِ المزاحمةِ عليها، والحرصِ عليها، وما في ذلك من الغصصِ والنَّغصِ والأنكادِ، وآخر ذلك الزَّوالُ والانقطاعُ، مع ما يعقُبُ من الحَسرَةِ والأَسفِ؛ فطالِبُها لا ينفَكُّ من هَمٍّ قَبلَ حُصُولِها، وهَمٍّ حالَ الظَّفرِ بها، وغَمٍّ وحزنٍ بعد فَواتِها، فهذا أَحدُ النَّظرَيْن.

* **النَّظر الثَّاني النَّظرُ في الآخرةِ**، وإقبالِها ومجيئِها ولا بُدَّ، ودوامِها وبقائِها، وشرفِ ما فيها من الخيراتِ والمَسرَّات، والتَّفاوتِ الَّذي بينه وبين ما هنا؛ فهي كما قال اللهُ سبحانه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧] فهي خيراتٌ كاملةٌ دائمةٌ، وهذه خيالاتٌ ناقصةٌ مُنقَطِعَةٌ مُضمَحِلَّةٌ.

فإذا تمَّ له هذان النَّظران آثَرَ ما يقتضي العقلُ إيثارَه، وزَهِدَ فيما يقتضي الزُّهدَ فيه...»[(١)].

وذَكَرَ: نحوَ هذا المعنى في موضعٍ آخر، وزادَ عليه أمرًا ثالثًا، فقال:

«**والَّذي يُصحِّح هذا الزُّهدَ ثلاثةُ أشياء:**

* **أحدها:** عِلْمُ العبد أنَّها ظلٌّ زائلٌ، وخيالٌ زائرٌ، وأنَّها كما قال الله تعالى فيها: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد:٢٠].

---

(١) انظر: الفوائد لابن القيِّم (ص١٣٦).

وقال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس:٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف:٤٥].

وسمَّاها عَزَّوَجَلَّ متاعَ الغُرورِ، ونهى عن الاغترارِ بها، وأخبرَنا عن سوءِ عَاقِبَةِ المُغتَرِّين بها، وحذَّرنا من مِثلِ مَصارِعِهم، وذمَّ من رَضِيَ بها، واطمأنَّ إليها.

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا؟ إِنَّمَا أَنَا كَرَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ وتَرَكَهَا**»(١).

* **الثَّاني:** علمُهُ أنَّ وراءَها دارًا أعظَمُ منها قدرًا، وأجلُّ خطَرًا، وهي دار البقاء، وأنَّ نِسبَتَها إليها كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟**»(٢)، فالزَّاهدُ فيها بمَنزِلَةِ رَجُلٍ في يده دِرْهمُ زَغَلٍ، قيل له: اطرَحْهُ، ولك عِوضُهُ مائةُ ألفِ دينارٍ

(١) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

مثلًا، فألقَاه من يدِه رجاءَ ذلك العِوَض، فالزَّاهد فيها لكمالِ رغبَتِهِ فيما هو أعظمُ منها زَهِدَ فيها.

* **الثَّالثُ:** معرفتُهُ أنَّ زُهدَهُ فيها لا يمنعُهُ شيئًا كُتِبَ له منها، وأنَّ حِرصَهُ عليها لا يَجلِبُ له ما لم يُقْضَ له منها، فمتى تيَقَّنَ ذلك، وصار له به علمُ يَقينٍ؛ هان عليه الزُّهد فيها؛ فإنَّه متى تيَقَّن ذلك، وثَلِجَ له صدرُه، وعلم أنَّ مَضمونَهُ منها سيأتيه؛ بقي حِرصُه وتَعبُهُ وكدُّهُ ضائعًا، والعاقلُ لا يرضى لنفسِه بذلك.

فهذه الأمورُ الثَّلاثةُ تُسهِّلُ على العبدِ الزُّهدَ فيها، وتُثَبِّتُ قَدمَه في مقامِه، واللهُ المُوفِّقُ لمن يشاء»[1].

أصلح الله قلوبنا أجمعين وهدانا إليه صراطًا مستقيمًا، وأعاذنا من أمراض القلوب وأسقامها، وجمعنا على الحقِّ والهدى إنَّه سميع قريب مجيب، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (٢/ ٥٥٠ - ٥٥٤).